ما لا يموت ...

قصة بقلم علي بدور

الموت في الشتاء يقترن بالاشجار العارية والارض الموحلة والعواصف الهائجة .. فكأنه لايتحرك الا ببطء ، وهو يغيب اعزاءنا عنا لتظل قلوبنا تعيش مأساة انتقالهم الى اللحد البارد ماداموا على الطرق الى قبورهم.

لقد صور لي نبأ الموت الذي وصلني الان ، ذلك الطريق الموحل وسط العواصف والاشجار العاريه وهو يشهد نقل جثة تلك الانسانة التي احببتها الى اللحد البارد .

جلست افكر وسط الغرفة الدافئة في هذه العلاقة التي كانت بيني وبينها وظلت قرابة عام ثم انقطعت بالمرة .. واتسع افق الغرفة بحيث اشرف على افق اوسع .. واخذت افكر بالعلاقات الانسانية بين الناس .

ان العلاقات الانسانية شغلت ذهني كثيرا .. اتعبتني في كثير من الاحيان .. ولكن دون الوصول الى نتيجة .. كانت تزداد غموضا كلما حسبت انني ازددت بها معرفة . لقد حسبت في بعض المرات انني وصلت الى حقيقة الشعور الخفي الذي يتحكم في هذه العلاقات المفرطة في الحساسية ولكن الواقع الجامد كان يردني الى حقيقتي دون ان يسمح لي ولو بالشعور مرة واحدة بانني وضعت يدي على سر من تلك الاسرار التي تأخذ بمجامع تفكيري واهتمامي .

لقيت بعض الناس لمرات كثيرة .. وكان تأثيرهم في ظاهرا ..ولكنني كنت افقدهم بعض الوقت فلا يعود لهم في حياتي ماكان لهم من التأثير فيها ... ولكن ذلك كله يبدوبسيطا اول الامر لانني عندما ادقق في نفسي اجدني وقد اضيف الي طبقة جديدة تشبه طبقات الارض التي تتكون بعضها فوق بعض ، بحيث لايمكن التخلص من هذه الطبقة الجديدة التي اضحت تؤلف جزءا لاينفصل من وجودي .

لقد عرفت تلك الانسانة وامضيت في صحبتها قرابة عام .. ثم افترق كل منا عن الاخر .. بعد ان تركت الايام في كل منا طبقة جديدة لايمكن التخلي عنها .. وهي وان تكن قد سترت بطبقة او طبقات جديدة بفعل علاقات انسانية جديدة ، لكنها لاتزال تؤلف حيزا لايمكن التساهل في عدم الشعور به .. ذلك انني اقمت الكثير من العلاقات الانسانية الجديدة بعد ان انفرط عقد تلك العلاقة العميقة مع تلك الانسانة . ولكنني كنت استطيع ـ وبسهولة مفرطة ـ ان استعيد كل ماحدث خلال ذلك العام كله ، ومنذ اول دقيقة حتى اخر دقيقة فيه ... اذ لاازال اذكر الى اليوم كيف تلاقينا لاول مرة وتحدثنا معا ولم يستطع كل منا ان يقاوم ذلك السحر الهادىء الذي كان يغمر نفس كل منا دون ان يتكلف في تلقيه او اصداره . كما انني اذكر وبمنتهى الدقة اول حديث صريح عن مباهج القلب الذي وحد من نظرتنا المشتركة الى الحياة .. وكيف مضينا في طريق لانود ان نعرف نهايته .. كما اذكر الى الان اخر حديث هاتفي معها .. كان له طعم الجرح ، الحار عندما تفور فيه سكين حادة .. والى اليوم لايزال الجرح حارا ولا تزال السكين تحاول اجتياز اللحم الحي الى نهايته ..

قلت انني استطيع تذكر الكثير مما حدث لي رغم ان هذه العلاقة الانسانية قد احاطتها الايام باطار خاص ووضعت لها بداية ونهاية ، وعشت خلالها ساعات حافلة بالسعادة وعرفت حقيقة العاطفة عندما تملأ القلب الانساني وكيف تشغله عن كل شيء .. بل كيف تطلعه من خلال صفائها ونبلها على كل شيء .

وها هي السنون تمر على هذه العلاقة وتقدم بعدها علاقات جديدة حتى اذا حفرت في نفسي حفرة عميقة وجدت ألوانا متباينة من الارض قد طبق بعضها فوق بعض ، ترمز كل طبقة الى نوع معين من العلاقات التي تربط بيني وبين من عرفت واحببت برباط قوي لا فكاك منه الا بالموت .

ولاول مرة في حياتي اتعرض لامتحان قاس فقد كانت العلاقة الانسانية التي تربطني بالاخرين تعبر لي ولو من خلال الرفض عن بقائها متوازنة بوجودي ووجود شريكتي في العلاقة على الطرف المقابل فهلا يختل ذلك التوازن العاطفي سواء اكان سلبيا ام ايجابيا ..

واليوم اتعرض لامتحان جديد .. فقد كان الموت الذي عرفته يطال اقاربي او اصدقائي فيحزنني موتهم ساعات او اياما ويترك في نفسي الاما لوفاة من اعرف .. ولكنني لم اجرب الموت عندما يخطف احدى من عرفت معرفة انسانية شاملة وقامت بيني وبينها علاقة انسانية صميمية. ان العلاقات التي هي من هذا النوع حساسة جدا ورقيقة جدا ، فهي تعبر عن تشوف الانسان الى حياة نقية صافية كلها طهر ونبل ولا شيء يجعلها طاهرة ونبيلة مثل القلب الحي الذي امتلأ بالعواطف الصادقة والمشاعر النبيلة ..

ان الموت الذي تخطف بسرعة ، من عرفتها ذات يوم قد اوقعني في ارتباك عظيم ، فقد ازال ا ول ماازال وجود من احببتها المادي من امامي فلم يعد لها وجود ،بحيث اختل التوازن الذي كان قائما ، ولم اعد استطيع الشعور عندما اراها ولو لم اكلمها ، ان اقول فيما بيني وبين نفسي : « لقد كنت اعرفها وكنت احب معرفتها » ولم يعد بمقدوري ان اراها من جديد ولو بحكم الصدفة ، لان موتها قد امات الصدفة ايضا من حياتي ، واضحت رؤيتها مستحيلة ولو اجتمعت كل الصدف معا . وعدت احقق فيما بيني وبين نفسي وادقق على وجود هذه العاطفة المستقلة في اعماقي ، تلك العاطفة التي تؤلف حيزا مستقلا لايمكن ان انكره .. واصبحت ذكرياتي عندما تريد ان تسترجع لحظات تلك العلاقة التي كانت قائمة بيني وبين تلك الانسانة ، لا تستطيع ان تسترجع الا اطيافا ، بل قد لاتستطيع ذلك ، لانني سوف انكر نفسي اذا اردت ان اتمثل كل ماكان يجري بيننا .. وكأنه يجري بيني وبين انسانة ميتة ، اذ لم يعد ذلك الجسد الحي النابض بالفتنة والاغراء الا جثة ، وتوارت تلك الروح الرقيقة وذلك الذهن المتفتح الذكي كما تتوارى سبحات العبير التي تفوح عن وردة متفتحة .

ولكن موت من احببت معرفتها لم ينه وجودها المادي فحسب ، بقدر ماشككني في وجودي ايضا . ان هذا التوازن القائم لم يعد جسرا تعبره قوافل الذكريات وهي محملة بأطيب المتع والمسرات .. بل اضحى عبئا ثقيلا .. واشعرني انني بدأت انتهي انا الاخر ايضا .. لان حياتي هي عبارة عن مجموع العلاقات الانسانية التي اقمتها مع من احببت .. وزوال واحدة منهن معناه بدايتي في الزوال ايضا .. لاعتقادي ان الحياة ليست اياما ولا شهورا جامدة ، ولكنها عبارة عن رصيد نفسي وذكريات وعواطف وعلاقات قديمة واخرى جديدة .. وان كل تهديد يمس جزءا من هذا الرصيد معناه نقص في حياتي بالذات ، والقلب البشري عندما لا يحس او لا يردد ذكرياته الحية .. يبدو قلبا ميتا رغم انتظام دقاته.

التتمة على الصفحة ٦٠

ما لا يموت

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٦ ـ

لقد كان الموت عندي ، نهاية باردة لا احس بها الا بمشقة وجهد ، ولكنه اليوم وبعد ان ماتت الانسانة التي احببتها طوال عام مضى ، فقد اضحى قريبا بحيث لايفارق القلب .. ولكم خفق القلب لمرآها ؟.. ولكم طرب لهمسات روحها ؟. لقد اصبح الموت يعيش في قلبي نفسه واخذ يشعرني انه ميت في جزء كبير منه ، ذلك الجزء الذي وعى عام الحب في كل دقيقة من دقائقه .

حاولت ان استرجع الذكريات يوما فيوما كما كنت افعل من ذى قبل .. فوجهت صعوبة في ذلك لانني كنت اصطدم بنبأ الوفاة الذي عم وجود تلك الانسانة التي احببت فلا أجدني قادرا ولو بالخيال على تحريك ذلك الجسد الحي اللدن المشبع بالرغبات ودم الحياة الفوار .. لقد جمدت الحياة في جسدها الشاب وصعدت روحها الى الاعالي ،واذا تخيلتها تتحرك ولو بصعوبة وجدتها ونصف ابتسامة تضيء وجهها ، حتى اذا كد الخيال وسيرها قليلا ، مشت في طريق مفروشة بالقبور الفارغة ، فهي معرضة مع كل خطوة لان تسقط في حفرة تنتظر الامتلاء.

***

الشتاء في الخارج ثقيل وحاد .. والريح تعبث بالاشجار العارية، ومن خلف النوافذ يلوح وجه الافق عابسا مكفهرا .. والغرفة تتسع تارة فتشمل ميدان حياة باكملها ، وتضيق تارة فتكون قبرا لمعرفة انسانية تابى ان تموت ، وكل شيء في الدنيا يحس به القلب وتشعر به النفس لا يخلو من الالم اذا لم نستطع ان نمزجه بأيامنا مزجا دقيقا كما تمزج الطبيعة ملايين النجوم بالسيماء المظلمة حتى يبدو الظلام محببا الى العين والقلب مادام قد امتزج بضياء النجوم المشعة .

كنت وانا افكر في نبأ الوفاة واستعرض الكثير من الذكريات اصطدم بواقع هذه الذكريات بعد ان ماتت الانسانة التي كانت سببا في ولادتها ذات عام .

تأملت طويلا فيما تبقى لي بعد موتها .. انها ماتت .. واخذت احس بما مات في قلبي بموتها . ولكنها وهي تمضي الى قبرها تركت في نفسي شيئا واحدا لايموت .. اذ ليس مهما ان استرجع فيما بيني وبين نفسي ذكريات الايام التي امضيتها في صحبتها ـ وان كنت لا استطيع ذلك بعد موتها ـ ولكنني في كل وقت قادر على الشعور بان في القلب رغم كل شيء ذكرى شيء لايموت ..

عندما وصلت الى هذه المرحلة من حوار الشعور ، احسست بالراحة تغمرني .. كانت اشبه بدفء غامر بعد برد شديد .. واخذ افق الغرفة يرق ويلطف .. والطبيعة تبدو ومن خلف زجاج النوافذ مشرقة باسمة .. وزاد الجو لطفا ورقة عندما خيل الي انني ابصرت طيف ذلك الشيء الذي لايموت .

وانحدرت دمعة مضيئة على موت من احببت ، واحسست بدفء الوهج المنبعث من اعماق النفس بعد ان اهتديت الى ذلك الذي تركته في نفسي .. دون ان يطاله الموت ..

وادركت لاول مرة في حياتي ، ان العلاقات الانسانية هي معيار الحياة الحقيقي رغم ما يشوبها من الام .. اذ بدونها تبدو الحياة اجنرارا ، وتفقد طعمها الحقيقي .

حلب — علي بدور

دار الكاتب العربي

للتأليف والترجمة والنشر

بيروت ـ بناية عمر الخيام ـ ص.ب ٣١٥٧

هاتف ٢٩١١١٨ ـ ٢٤٠٥٠٦ ـ ٢٤٠٥٠٧

صدر في منشوراتها :

الفنون الادبية واعلامها

في النهضة العربية الحديثة

تأليف : أنيس المقدسي

آخر ما أنتجته يراعة المؤلف العلامة في حياته الفكرية الحافلة بكل ما هو جليل في ميدان الدراسات الادبية ، وقد عرض فيه حياة وأعمال المفكرين الرواد الذين مهدوا السبيل للوثبة الادبية التي نحياها اليوم ونستمتع بثمارها، ثم درس بعمق وشمول سائر الفنون الادبية النثرية وتطورها ، من المقالة والخطابة ، الى السيرة والقصة ، فالى النقد والترجمة ، وأعلام كل فن من هذه الفنون في مسيرته التطورية الصاعدة، فكان هذا السفر مرآة صادقة للحركة الفكرية المعاصرة في سائر البلاد العربية ، سجلها الاستاذ المؤلف بمنطق العالم ، واسلوب الاديب ، وذوق الفنان المبدع.

« الفنون الادبية واعلامها في النهضة العربية الحديثة » كتاب رائد ومرجع خالد لكل باحث وطالب معرفة ، يقدمه حجة الادب لاخوانه الشيوخ وأبنائه الشباب .

٦٦٤ صفحة كبيرة

الثمن ١٠ ليرات لبنانية أو ما يعادلها